مقاربة أنثروبولوجيَّة لغويَّة في بلاغة التَّمني والتَّرَجِّي

م.د. سعد رفعت سرحت
مديرية تربية صلاح الدين
Srafat448@jmail.com

الملخص

تُعنى هذه دراسة بأسلوبي التمني والترجي من وجهةٍ أنثروبولوجية لغويّة، من منطلق أنَّ الأساليب البلاغية في الثقافة العربية لم تُقرأ من هذه الوجهة قراءة كافيّة على الرَّغم من الخطوات الحثيثة التي خطتها الأنثروبولوجيا في ميادين اللغة.

إنَّ ما يدفع الدراسة إلى هذا المنظور هو أنّ في مواقف البلاغيين من التمني والتَّرجّي وتقسيماتهم شيئًا ما يدعو إلى التحرِّي والبحث في جذور الثقافة، ففي مواقفهم وتقسيماتهم فيما يتعلّق بهذين الفنين شيء مسكوت عنه، على خلاف ما نجده في المعجمات العربية والتفاسير والكتب الدينية.

إنّ ثنائيّة التَّمني والتَّرجّي، وإن ارتدت لباس الفروق اللغوية الحادة، تخفي في طيَّاتها أشياء تتعلّق بالتشاؤم والتَّفاؤل والحسد والغبطة. وهنا تبرز فرضية الدراسة التي تذهب إلى وجود حكاية ثقافية وراء كلّ فنٍّ بلاغي، إذ ليست الأساليب البلاغية سوى نتاجات ثقافية تعكس رؤى الجماعة ومشاعرها من خوف وقلق واستبشار وتفاؤل وتشاؤم وغير ذلك. من هذا المنطلق نرى أنّ ثنائية التمني والترجي ذات حمولة ثقافية عميقة تعكس شيئًا من تلك الرؤى والمشاعر في حياة العرب.

الكلمات المفتاحية: التّمني - التّرجي الأنثروبولوجيا اللغوية الثقافة - التوقّع.

A linguistic anthropological approach to the rhetoric of wishing and hoping

Assist Lec.Saad Rifaat Sarhat
Education Directorate Salahaldin

Abstract

This study examines the rhetorical devices of hope and aspiration from an anthropological perspective. Rhetorical devices in Arab culture have not been adequately examined from an anthropological perspective.

The study is premised on the premise that there is a cultural narrative behind every form of rhetoric. Rhetorical styles are nothing more than cultural products that reflect a group's visions and feelings of fear, anxiety, hope, optimism, pessimism, and so on. From this perspective, we see that the duality of wishful thinking and hopeful thinking has a profound cultural connotation, reflecting some of these visions and feelings in Arab life. Do Arabs fear wishful thinking or are they sensitive to it؟

Religion doesn't prohibit it, as will become clear later. But let's leave religion aside and talk about culture—culture as a way of life, behaviors, convictions, spiritual and intellectual residues and ills.

There's something in the rhetoricians' attitudes toward wishing and hoping that doesn't inspire reassurance and comfort, as if something is out of place. The duality of wishing and hoping, even if it's disguised as linguistic differences, conceals elements related to pessimism, optimism, envy, and envy.

Keywords:Wishing_Hope_Linguistic anthropology_Culture_Expectation

المقدمة

التَّمنِّي والترجّي موضوعانِ ملتبسانِ في العربيّة، فمن أهل اللغة من يعترض على استعمال (التمني) مكان (الترجي) بدعوى أنّ التمني يكون في غير الممكن، أو في ما لا يرجى حصوله، وأنّ الترجي لا يكون إلَّا في الممكن أو في ما يرجى حصوله. كذا يختلف أهل اللغة حول علة خروج الترجّي من أساليب الطلب في البحث البلاغي في الوقت الذي يدخل التَّمنِّي في دائرة أساليب الطلب مع أنّه غير مرجى حصوله على الأغلب.

يبدو أنَّ هذا الالتباس في فهم الأسلوبين وعدم فكّ الإدغام الحاصل بينهما يحيلانا على فكرة الرواسب الثقافية، ولا سيّما أنّ الأسلوبينِ داخلان فيما يسميه التداوليّون بالأفعال البوحيَّة التي تتعلَّق بالتنفيس وإبداء المشاعر، فنكون عند تحليلهما إزاء متبنَّيات العرب ومعتقداتهم عن التشوّف، والتفاؤل، والتشاؤم، واليقين واليأس؛ ذلك أنّ أساليب اللغة ومفرداتها تشعّ بشكلٍ غريب على الوجوه المادية والمعنوية في الثّقافة، إذ تشكّل لغة الجماعة خبرة الآباء، والأجداد، وتحمل متبنَّياتهم، ومعتقداتهم، وطرق تفكيرهم، فيظهر ذلك في تراكيب اللغة وأعرافها في الاستعمال، ولا شيء من اللغة يعكس هذه الحقيقة مثل الفنون البلاغية التي معها يمكن القول إنَّ الفنَّ البلاغي إنَّما هو في جذوره فكرة مستشفَّة من البناء الثقافي والموقف الاجتماعيّ للمجتمع؛ لأنَّه يحمل في طياته أحاسيسَ الجماعة ورؤاها ودوافعها الشعورية وغير الشعورية.

تسعى الأنثروبولوجيا اللغوية إلى البحث في العلاقة بين الثقافة واللغة، ومن أولوياتها الكشف عن هذه الدوافع والمشاعر التي لا يدركها الأفراد إدراكًا واعيًا وهم يتواصلون؛ لأنّ بيانها واستظهارها ليسا بالأمر الهيّن، إذ

يتوقف ذلك على مدى استعدادهم للبحث والتعمق لاكتشاف جذورها في أرض الثقافة.

تحمل الأساليب البلاغية وفنونها شيئًا كثيرًا من تلك الأحاسيس والمشاعر والدوافع، غير أنّ هذه الأساليب بقيت في منطقة المسكوت عنه، وإلّا فإنّ لكلّ فنٍّ بلاغي مغزاه الثقافي الذي ينتظر الكشف.

من هنا نرى أنَّ ثنائيّة التَّمني والتَّرجّي، وإن ارتدت لبوس البلاغة وألهت أهل اللغة عن التعمّق الثقافيّ، تخفي في طيَّاتها حكاية ثقافية عميقة تعكس شيئا من تلك الرؤى والمشاعر في حياة العرب، ولنا لزعمنا هذا ما يؤيده في القرآن الكريم وكتب التفسير والمأثورات العربية وكتب الرحالة والمبشرين.

هكذا تبرز فرضية الدراسة التي تذهب إلى وجود حكاية ثقافية وراء كلّ فنٍّ بلاغي، إذ ليست الأساليب البلاغية سوى نتاجات ثقافية تعكس رؤى الجماعة ومشاعرها من خوف وقلق واستبشار وتفاؤل وتشاؤم ومن غير ذلك.

جاءت الدراسة على ثلاثة مطالب، تناولنا في المطلب الأول: (التَّمني والتَّرجّي :ترسيسٌ لأصلهما في اللغة) فهذا المطلب بمنزلة مهاد للدخول إلى الموضوع ورصد دلالات خفيّة في المادة المعجمية وتحوّلاتها الدلالية.

وفي المطلب الثاني تناولنا (التَّمنّي:المذموم الذي يُخشى تمكّنه) فبدلًا من أن يكون الحديث عن التمني بين الإمكان وعدم الإمكان شاغلًا عن رصد مضمونه الثقافيّ، ينبغي أن يتَّجه البحث إلى رصد ما فيه من مغزى ثقافيّ، ونرى أنَّ ذمَّ التمنِّي كان متسيّدًا على الذهن العربي بشهادة القرآن والحديث الشريف ومأثورات العرب.

أمَّا في المطلب الثالث، فتناولنا (الرَّجاء:المتوقَّع الذي إنْ توقعته وقع لا محالة) إذ طغى الخلاف حول كون التَّرجِّي طلبًا أو غير طلبٍ على متضمناته الثقافيَّة، وسنرى أنَّ الأساس في فرزه عن التَّمني يعتمد على دلالاته الإيجابية في الوعي العربي القديم.

المطلب الأول: (التَّمني والتَّرجّي: ترسيسٌ لأصلهما في اللغة)

إنّ اللجوء إلى أصل المصطلحين في اللغة لرصد تحولاتهما الدلالية في المعجم العربي ليس من موجّهات القراءة بعدِّه ضرورة منهجيّة فحسبُ، وإنَّما هو الأساس الذي تقوم عليه القراءة الأنثروبولوجيَّة، فالحاجة إلى المعجم مكينة في البحث الأنثروبولوجيّ بعامَّة وفي البحث الأنثروبولوجيّ اللغويّ بشكل خاصّ، إذ النظرة العجلى في المعجم العربيّ كفيلة بتغيير قناعاتنا عن التَّمنّي والتَّرجي، فقد كان فهم هذه الثنائية مختزلة بما ورد عند البلاغيين، وندر أن نجد أحدًا يتوسّع فيها لتكريس رؤية اجتماعية أو ثقافيَّة عنها.

أ- التَّمنِّي

الأشهر في التَّمنّي هو دلالته على السؤال والتَشهّي، إذ المُنَى جَمْعُ المُنْيَة:((مَا يَتَمَنَّى الرَّجُلُ. ومنه المَنْوَةُ فِي بَعْضِ اللُّغَاتِ. فالتَّمَنِّي حَدِيثُ النَّفْسِ بِمَا يَكُونُ وَبِمَا لَا يَكُونُ)). (ابن منظور: 1414هـ، ١٥/ ٢٩٢).

والأساس في هذه المادة هو القَدْر، فقولك)):تَمَنَّيْتُ الشيءَ، أَي قَدَّرته وأَحْبَبْتُ أَن يَصِيرَ إِليَّ.)). (الجوهري: 1987، 6\2498).

الأصل في المُنى، إذن القَدَرُ، وفي التمنّي التَّقدير، و((مَنَاهُ اللَّهُ يَمْنِيه: قدَّره.))(ابن منظور: 1414هـ، 15\292). ومن هذا المعنى تتحوّل هذه المادة لتعني أشياء أخرى، من ذلك:

- الموت: فالمَنْي والمَنِيَّة: ((الْمَوْتُ لأَنه قُدِّرَ عَلَيْنَا. وَقَدْ مَنى اللَّهُ لَهُ الْمَوْتَ يَمْنِي، ومُنِي لَهُ أَي قُدِّر له.)). (ابن منظور: 1414هـ، 15\ 293).

- الاختلاق والافتعال والادِّعاء: منه قولهم: ((امْتَنَيْت الشيءَ: اخْتَلَقْته ولا أصل له.)). (ابن الأثير: 1997، 4\367. والعربُ تَقُولُ: أَنت إِنَّما تَمْتَنِي هَذَا القولَ أَي تَخْتَلِقُه. من هنا أطلِق التَّمنِّي على الكذب، حتّى قيل إنَّ مَنِي مَقْلُوبٌ مِنَ المَيْنِ، وَهُوَ الْكَذِبُ. (ينظر: الجوهري: 1987، 6\2498، و ابن منظور: 1414هـ، 15\ 293). ومنه يقال لمن يكذب:((يَمني، إذا قدَّرَ، لأنّ الكاذب يقدّر في نفسه الحديث.)). (الزبيدي: 1965، 39\563).

ومن هذا أيضًا، أُطلق التَّمني على من يحاول الشيء بلسانه وهو عاجز أو لم تتهيَّأ له أسبابه كالشِّعر مثلًا، فالذي يدَّعي الشَّاعرية غير مقتدرٍ في صنعه يقال عنه: إنَّه يتمنَّاه، واللغة الدَّارجة في العراق ما تزال تحتفظ بهذه الدلالة، إذ يَجُوزُ في(تَمنَّى) أَن ينسب ((إِلى أَنْ الْقَائِلَ إِذا قَالَ مَا لَا يَعْلَمُهُ فكأَنَّه إِنَّما يَتَمَنَّاه، وَهَذَا مستعمل فِي كَلَامِ النَّاسِ، إذ يَقُولُونَ لِلَّذِي يَقُولُ مَا لَا حَقِيقَةَ لَهُ وَهُوَ يُحبه: هَذَا مُنًى، وَهَذِهِ أُمْنِيَّة.)).(ابن منظور: 1414هـ، 15\295).

- الابتلاء: فالأقدار قد تكون ابتلاءً، ومنه قولهم: ((مُنِيتُ بِكَذَا وَكَذَا، أي ابْتُلِيت بِهِ. ومَنَاه اللهُ بحُبها يَمنِيه ويَمْنُوه، أَي ابْتلاه بحُبِّها مَنْياً ومَنْواً. وَيُقَالُ: مُنِيَ ببَلِيَّة أَي ابْتُلي بِهَا كأَنما قُدِّرت لَهُ وقُدِّر لَهَا)). (الجوهري: 1987، 6\2497)، وكأنَّ قدر الابتلاء غلب على التمَّني.

- المحاذاة: ومنه: ((دارِي مَنَى دارِك أَي إِزاءَها وقُبالَتها. وَدَارِي بمَنَى داره أَي بِحِذَائِهَا.)) (الجوهري: 1978، 6\ 2497)، والمحاذاة متوقِّف على التقدير لا محالة.

- الاستدعاء: يقال: ((منى الرَّجل واسْتَمْنَى أَي اسْتَدْعَى خُرُوجَ الْمَنِّي.)). (الجوهري: 1978، 6\ 2497)، ومن هنا أخذت كلمة المني.

- القراءة أو التلاوة،: ومنها: تَمَنَّى الكتابَ، أي قرأَه وكَتَبَه. (ابن الأثير: 1997، 4\367)، وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيز:﴿إِلَّا إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ (سورة الحج:52)، أي قَرأَ وتَلا فأَلْقَى الشَّيطان فِي تِلاوته مَا لَيْسَ فِيهِ. (ابن منظور: 1414هـ، 15\294، و ابن كثير: د.ت، 5\434)، ولعلَّ تسمية القراءة بالأمنيَّة نابعة من كون القارئ يقدّر موضع الحروف والأصوات فيضعها في موضعها.

- المجازاة والمكافأة: ومنهما((لأَمْنِينَّك مِناوَتَك أَي لأَجْزِيَنَّك جَزاءَكَ. ومَانَيْته مُمَانَاةً: كافأْته، غَيْرُ مَهْمُوزٍ. ومَانَيْتُك: كافأْتك.)). (ابن منظور: 1414هـ، 15\294)، إذ يبدو أنّ الجامع بين القدر والمجازاة هو أنَّ الجزاء يأتي على أقدار الأفعال.

- الانتظار والملازمة: من ذلك قولهم: ((مانَيْتُه إذا لَزِمْته. ومانَيْتُه: انْتَظَرْتُه وطاوَلْتُه. والمُمَانَاة: المُطاولةُ. والمُمَاناةُ: الانْتِظار، يُقَالُ: مانَيْتُك مُنذُ اليومِ أَي انْتَظَرْتُكَ.)). (ابن منظور: 1414هـ، 15\296).

وهذا المعنى ليس بعيدًا عن التشوّق والتشوّف وما تهوى النفس، فالمنتظِر متشوّف إلى ما ينتظره، يلازمه في باله وفكره.

يبدو أنّ القدْر هو المعنى المركزيّ في هذه المادة، غير أنَّ مركزية هذا المعنى لا يُقلّل من شأن المعاني الأخرى، فلجميعها فاعلية وأثر في توجيه النظر لفهم أفضل للتَّمني.

ما يمكن الخروج به من هذه المادة إجمالًا هو أنَّها تستتر على دلالات غير سارة: (الموت والابتلاء والكذب والاختلاق والظَّنّ) على الرّغم من سيادة معاني التَّشهي والتوقع وما تهوى النفس عليها.

ب- التَّرجِّي

أصل الرَّجاء من مادة رجو، ومنها أُخِذ، فمعنى رَجَا: ناحية البئر. وكلُّ شَيْءٍ وكلُّ ناحيةٍ رَجًا. (الفيروزآبادي: 2005، 1278)، وجمعه أرجاء ومنه قوله تعالى: ﴿والملك على أرجائها﴾ (سورة الحاقة: 17).

والمستحصل من هذه الدلالة هو مشارفة الشيء والوقوف على مقربة منه، ولذا غلبت على هذه المادة دلالات سارة على الرغم من دخول (الخوف) ضمنها، فممّا تدلُّ عليه:

- الأمل ونَقِيضُ اليَأْسِ، فيقال: ((رَجاهُ يَرْجُوهُ رَجْواً ورَجَاءً ورَجَاوَةً ومَرْجَاةً ورَجَاةً.)). (ابن منظور: 1414هـ، 14\309، و الفيروزآبادي: 2005، 1278)، وكلّ ذلك دالٌّ على الأمل.

بيدَ أنَّ ترجمة الرّجاء بالأمل لا يدعونا إلى الإقرار بأنَّهما واحد، فالأمل لا يخلو من نقيصة الذَّم، ففي قوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة الحجر: 3)، جاء الأمل شاغلًا عن الطاعة وحائلًا دون الصلاح، إذ الأمل ((يوصف بمدح أو ذمٍّ بحسب المأمول، أما الرَّجاء فمحمود.)). (أبو بكر: 2014: 81).

- دنو النتاج: ومنه)) أَرْجَتِ الناقةُ- يُهْمز وَلَا يُهْمَزُ- أي دَنا نِتاجُها.)) (ابن فارس: 1972، 2\295)، وهذا المعنى الحافّ يرفد المعنى المركزيّ للمادة، إذ يشير إلى دنو المنتظَر أو تحقّقِ المرجو.

- الإرجاء أي التأخير: فقولهم)): أرجيتُ الأمر: أخَّرته، يُهمز ولا يُهمز)) (الجوهري: 1978، 6\2352)، وهو معنى مؤتلف مع الانتظار والتشوّف والأمل.

- الخوف: ولكن شريطة أنْ يكون مسبوقًا بالنفي، إذ ((لَا يَجُوزُ رَجَوْتُك وأَنتَ تُريد خِفْتُك، وَلَا خِفْتُك وأَنت تُرِيدُ رَجَوْتك.)) (ابن منظور: 1414هـ، 6\310).

يبدو أنَّ ظهور معنى الخوف مرتبط بطبيعة التشوّف والانتظار والتَّرقب، فكلّ ذلك داعٍ للخوف وقد يلتبس بهـ، فالمتشوّف يعتريه الخوف لما ينتظر ويترقَّب. علىً أنَّ هـذا المعنى لا يزاحم المعنى المركزيّ السارّ للرجاء، ولاسيَّما هو مقيَّدٌ بالنفي وله سياق استعمال خاصّ.

المطلب الثاني: (التَّمنّي:المذموم الذي يُخشى تمكّنه)

إنَّ التمنِّي والترجّي موضوعانِ إشكاليان في الذهن العربيّ، فقد أثيرت حول شواهدهما وأمثلتهما المشكلة ضروب من التأويلات والتخريجات، فإلى اليوم تُذيّل أسئلةُ الامتحان بعبارة:(أتمنّى لكم النجاح)، وكثير من أهل اللغة يعترض على استعمال التمني مكان التَّرجي بدعوى أنّ التمني يكون في غير الممكن، أو في المستحيل الذي لا يرجى حصوله (المرداوي: 2000هـ، 4\1710)، ومنهم من لا يشترط فيه الإمكان، بل يشترط أن يكون محالًا أو ممكنًا بعيد الوقوع، وأنَّ التَّرجي لا يكون إلَّا في الممكن (القزويني: 1998، 3\ 53، ابن عقيل: 1\346). لكن ما صحّة هذا المذهب، أو لنقلْ ما صحة هذه القناعة سارية المفعول إلى اليوم؟.

على خلاف ما يرى اللغويون ينبغي أن نميّز بين اللغة في سياق الاتصال، وبين اللغة في سياق العلوم و الاصطلاحات، لأنّ الفرق بين التمني والترجي هو فرق اصطلاحي علمي تواضع عليه العلماء والمختصون، أمَّا في ما تواضع عليه الناس فشأنٌ آخر.

ثمَّ من الضروري أن نميّز بين لغة الإعجاز الرباني وبين لغة التواصل الإنساني، فهناك من يرى أنّ القرآن دقيق في استعمال(التمني) في غير

الممكـن، واستعمال (الترجّي) في الممكـن، فمثلا يقـول تعـالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَه﴾ (سورة الإسراء: 57)، و لـم يقل: يتمنون رحمته. ويقـول تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ (سورة البقرة: 111)، والأماني لا تتحقق.

إنَّ لغة القرآن لغة إعجاز وتحدٍّ، أما لغتنا فلغة إنجاز وتواصل، وهناك أدلة كثيرة على جواز التَّمني في الممكن، من ذلك:

تقـول العـرب: ((منى الله لـك ما يسرك. أي: قـدَّر الله لـك مـا يسـرك)) (الواحدي: 1430هـ، 3\85)، وقد سبق أن أشرنا إلى التمني بمعنى القراءة أو التلاوة، فقد قيل عن قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ (سـورة الحـج: 52) إنَّ (تمنَّـى) بمعنـى (قـرأ) أو (تـلا) فـألقى الشـيطان فـي تلاوتهـ، فذهب الثعالبيّ إلى أنّ سبب تسمية تلاوة القرآن بأمنيّة ((أنَّ تـالي القـرآن إذا مـرَّ بآيـة رحمـة تمنَّاهـا، وإذا مـرَّ بآيـة عـذاب تمنّـى أن يُوقَّاهـا)). (الواحدي: 1430هـ، 3\85، الفيروزآبادي: 1965، 39\563).

وإذا كان التمنِّي محدَّدًا بغير الممكـن وبما لا يؤمل حصولهـ، فهل يليق برب العالمين -وهو أرحم الراحمين- ألّا يرجى حصول رحمته!.

ومـن ذلـك قـول الرسـول (صـلى الله عليـه وسـلم): ((إذا تمنّـى أحـدكم فليكثـر، فإنَّمـا يسأل ربَّـه)) (بـن أبـي شيبة: 1989، 6\48)، أي إذا سـأل الله أحـدُكم فلْيطلـب أو ليـتمنَّ الكثيـر، والرَّسـول أفصـح الخلـق وأبلغهـم سـمَّى الدعاءَ تمنّيًا، ولـم يسمِّهِ رجاءً، فلماذا لم يقل: إذا ترجى؟!.

يقـول ابـن الأثيـر في شـرح هـذا الحـديث: ((التمني: هـو تشـهي حصـول الأمر المرغوب فيه، وحديث النفس بما يكـون و بمـا لا يكـون، والمعنى: إذا سأل الله حوائجه وفضله فليكثر، فإنَّ فضل الله كثير، وخزائنه واسعة)) (ابـن الأثير: 1979، 4\367).

إنَّ الخلاف بين التَّمني والتَّرجي إنَّما هو خلاف حول نوعين من التوقّع، أوَّلهما: تعلّق القلب بأمرٍ على سبيل المحبة إلّا أنّه غير ممكن ولا يُطمع في نيله أو حدوثه وهو التَّمني، والآخر: تعلّقه بأمرٍ محبوب أو مكروه ممكن ويطمع في نيله أو حدوثه وهو التَّرجّي، وهنا يتَّضح الفرق بين الاثنين، فالتَّمني يدخل في المستحيلات والترجي لا يكون إلَّا في الممكنات، وهكذا يتميز التمني بما لا يُرجى حصولهـ، إمّا لكونه مستحيلًا ،أو لكونه غير مطموع في نيله، أمّا الترجي فبخلاف ذلك يقع في الممكنات و في ما يتوقع حصوله سواء أ كان محبوبًا أم مكروها.

والسؤال الذي بقي أبيًّا على الإجابة هو: كيف يدخل توقع المستحيل في الإنشاء الطلبي على حين يدخل توقع الممكن في الإنشاء غير الطلبي؟.

قُدِّم هذا السؤال كثيرًا، وظلّت الإجابات غير مقنعة، بل إنّ السَّواد الأعظم من الأساتذة والطلبة غير مطمئنين لصنيع البلاغيين وهم يُخرجون الرَّجاء من دائرة الطلب، وظلّت إشارة أحد شراح التلخيص هي المعتمدة للتخلّص من هذا الادغام، إذ يرى أنَّ الترجي هو ارتقاب الشيء وهو يشمل المحبوب والمكروه فليس من أنواع الطلب حقيقة؛ لأنّ المكروه لا يُطلب (التفتازاني: د.ت، 2\319)، غير أنّ هذه الإشارة تشمل الترجي في حال إذا كان خوفًا أو إشفاقًا متناسيًا حال كونه توقّعًا لمحبوب، فما نزال نسأل: وماذا عن المحبوب أهو أيضًا لا يُطلب؟!.

تحاول الدراسة أن تدلو بدلوها في المسألة، وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر، على أمل أنْ تكون بمنأى الجور والشَّطط.

قديمًا انبنى تقسيم الكلام على خبر وإنشاء على أسس ثقافيّة، ومن ذلك -إجمالًا- أنّ الكلام الذي يُوضع للنسبة التامة بما هو حقيقة واقعة وأمر

مفروغ منه يسمى خبرًا، وعلى أنّ الكلام الذي يوضع للنسبة التامة بما هي نسبة يراد تحقيقها ولم تتحقَّق بعدُ يسمى إنشاءً، هذا من جانب.

ومن جانب آخر انبنى تقسيم الإنشاء عندهم على طلبي وغير طلبي، على أنّ الإنشاء الطلبي يستدعي مطلوبًا غير حاصل وقت الطلب ولو في اعتقاد المتكلم، وأنّ الإنشاء غير طلبي يكون فيما هو حاصل وقت الطلب (ينظر: الهاشمي: د.ت، 70، وعوني: د.ت، 2\88). والتقسيم هنا ليس ببعيد عن التقسيم المعتمد عند الوضعيين في الغرب ومن بعدهم عند التداوليين، فعند برتراند رسل تعبّر اللغة عن ثلاثة أغراض:

١- لتدلَّ على حقائقَ واقعةً.

٢- لتُعبِّر عن حالة المتكلّم.

٣- لتغيِّر حالة السامع.

إذ المراد بالغرض الأول الإخبار، وبالغرض الثاني البوح والتوجيه، وبالغرض الثالث التأثير.ونرى أنّ برتراند رسل يدرج التمني في الغرضين الأول والثاني مع الجمل الطلبية. (راسل: 2013، 309).

غير أنَّ مفهوم (العالم) في النظرية التداولية بإمكانه توجيه قراءتنا وجهة أخرى في ضوئها تفهم ثنائية التمنّي والترجي فهمًا أفضل، إذ يتحدَّث التداوليّون عن صلة الكلمات بالعالم أو العكس وفق ثلاثة أغراض،أمَّا الغرض الأوَّل فيتمثّل بـ(ملاءمة الكلمات للعالم)، وأمَّا الغرض الثاني فيتمثَّل بـ(جعل العالم يلائم الكلمات) وأمَّا الغرض الثالث فيتمثَّل بـ(تغيير العالم بالكلمات). وهم بذلك لا يريدون بالعالم (الواقع الخارجي) أو الوقائع حصرًا؛ لأنّ هذا التفسير ساذج. اللَّهم نعم، فهم لا يهملون العالم الخارجي تمام الإهمال، ولكن الذي يهمّ أكثر هو المعتقدات والمشاعر والرؤى الشخصية. (سرحت: 2016، 269، 270).

المراد بالعالم -فضلًا عن العالم الخارجي- هو معتقد المتكلّم ومنظوره الشخصي عن العالم، وحين نقول (تغيير العالم بالكلمات) نعني بذلك التأثير في المخاطب كأنْ نقنعه بفعل شيء، أو نجعله منفعلًا بالقول ليبدو العالم في نظره غير ما كان قبل الكلام، فالعالم، إذن، هو الواقع الخارجي والواقع الداخلي معًا، وقد يعبّر عنهما بثنائية(ما في الخارج -ما في النفس) فما في الخارج مفهوم، أمَّا ما في النفس فيعني(الاعتقادات والقناعات والمشاعر والأفكار) التي يحملها كلٌّ منّا عن العالم وعن محيطه.

ولتوضيح ذلك نأخذ هذه الأمثلة:

أ-(الجوّ حارٌّ)-وصف العالم الخارجي.

ب-(القيامة حقّ)-وصف ما تعتقده.

ج-(قمْ يا زيدُ)- تريد إيجاد القيام.

د-(ليت الشباب يعود يومًا)-تصف مشاعرك.

نرى أنّ(أ) يندرج الكلام ضمن الأفعال الحكمية (=الخبرية) التي يريد بها المتكلم جعل الكلمات تلائم العالم، والمقصود بالعالم هنا الواقع الخارجي، فهو يصف حرارة الجو.

وفي (ب) يندرج الكلام -أيضًا- ضمن الأفعال الحكمية (=الخبرية التي يسعى من خلالها المتكلم إلى جعل (الكلمات تلائم العالم)والمقصود بالعالم هنا (المعتقد الشخصيّ)، وهو حين يقول (القيامة حقّ) فإنه يريد أنْ يلائم كلامه لما يعتقده.

وفي (ج) يندرج الكلام في الأفعال الأمريّة (=الموجهات) التي يسعى من خلالها المتكلم إلى (جعل العالم ملائمًا للكلمات)؛ لأنّه يحمل المخاطب على فعل شيء سيلائم الواقع، فيقول لمن ليس قائمًا (قمْ) وبقيامه يكون العالم مطابقًا للكلمة.

وفي(د) يندرج الكلام ضمن الأفعال البوحيَّة أو التعبيرات، فالمقصود بالعالم هنا عالم الأحاسيس والمشاعر، إذ يجعل المعبِّر (الكلمات تلائم العالم) أي أنّه يبوح بكلمات تطابق أحاسيسه، فحين يقول (ليت الشباب يعود يومًا) يريد بذلك ترجمة ما في نفسه من توق إلى أيام الشباب.

كان سيبويه دقيقًا وهو يتحدَّث عن (واجب)، و(غير واجب) في كتابه، فجاء حديثه على مقربة من هذا التقسيم، فالواجب لدى سيبويه ما كان واقعًا، أي المتحقق خارج النفس (=الخبر)، وأحيانا يعبّر عنه سيبويه صريحًا بـ(الواقع). وأمّا غير الواجب فيعني ما لم يقع بعدُ في الخارج، بل ما يزال في نفس المتكلم، ولكنه ممكن الوقوع (=الإنشاء). بهذين المصطلحين يؤسس سيبويه لشيء مهم في التداوليات وهو ثنائية (ما في الخارج/ما في النفس)، وهذا ما عرف أيضا لدى البلاغيين والأصوليين بـ(النسبة الخارجية).

ولكن ما يهمُّنا هنا هو أنّ سيبويه حين يتحدث عن(ليت ولعل وكأنّ) يقول عنها إنَّها غير واجبة، لأنها من صنف(التعبيرات) وحين يأتي إلى النفي يتحدث عن (نفي الواجب)؛ لأنّه داخل في(الإخباريات) وحين يأتي إلى الاستفهام يجعله كالأمر والنهي؛ لأنَّها جميعًا من (التوجيهيَّات) (سيبويه: 1988، ١/٩٩-١٤٥، و٢/ ١٤٦.و١٧٦/٣).

ومهما يكن من شيء، فإنَّ المعول عليه في كلّ ما تقدَّم أربع نقاط نحاول أن نسترشد بها في الدراسة:

١-أن نتحدث عن حقيقة واقعة أو أمر مفروغ منه (=خبر).

٢-أن نتحدث عن شيء نريد تحقيقه (=إنشاء).

٣-أنْ نتحدث عن شيء غير حاصل وقت الكلام نريد حصوله في اعتقادنا (=إنشاء طلبيّ).

٤-أنْ نتحدّث عن شيء حاصل في اعتقاد المتكلم، أو في حكم ما هو حاصل لا محالة (=إنشاء غير طلبي).

يتراوح كلٌّ من التَّمني والترجي بين النقطتين الأخيرتين، فالتمني إنشاء طلبيّ والترجِّي إنشاء غير طلبيّ، ولكنّ هذا التقسيم لا يستوي مع التَّرجّي دائمًا، إذ يقع الترجّي في الإيجاب عند غير واحد من علماء العربيّة كما سنرى، ولكن لنرَ معًا ما الداعي لهذا الارتباك؟.

في الوعي العربي موقف غير سارّ تجاه التمني، فمن ذلك يرى ابن القيّم أنّ الْفرق بَين الرَّجَاء وَالتَّمَنِّي هو: ((أَن الرَّجَاء يكون مَعَ بذل الْجهد واستفراغ الطَّاقَة فِي الْإِتْيَان بِأَسْبَاب الظفر والفوز، وَالتَّمَنِّي حَدِيث النَّفس بِحُصُول ذَلِك مَعَ تَعْطِيل الْأَسْبَاب الموصلة إِلَيْهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِن الَّذين آمنُوا وَالَّذين هَاجرُوا وَجَاهدُوا فِي سَبِيل الله أُولَئِكَ يرجون رَحْمَة الله﴾ (سورة البقرة: 218) فطوى سُبْحَانَهُ بِسَاط الرَّجَاء إِلَّا عَن هَؤُلَاءِ.وقوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ (سورة الحج: 13) قَالُوا فِي تَفْسِيرهَا لَا تخافون لله عَظمَة،... سُبْحَانَهُ طوى الرَّجَاء إِلَّا عَن الَّذين آمنُوا وَهَاجرُوا وَجَاهدُوا... وَأما الْأَمَانِي فَإِنَّهَا رُءُوس أَمْوَال المفاليس أخرجوها فِي قالب الرَّجَاء وَتلك أمانيهم وَهِي تصدر من قلب تزاحمت عَلَيْهِ وساوس النَّفس فاظلمّ من دخانها، فَلم يدع للرَّجاء موضعًا...)) (ابن القيم: د.ت، 245-247).

والأمر كذلك في أدبيات التصوُّف، فعندهم يتّفق الرَّجاء والأمنية في أنّ كلّا منهما تعلّق القلب بالشيء من حيث يتوقّع، ويفترقان بأنّ الرجاء ما قارنه العمل وإلّا فهو أمنية، فسبب تحصيل المرجو هو الجهد والعمل إلى تحقيقه، أمّا الأمنية فلا مطمع لحصولها لافتقارها إلى سندٍ متمثّلٍ بالعمل ،ولذا كانت الأمنية موائِمةً لطباع الشَّهوة.

ومن مؤيدات ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (سورة البقرة: 78) وتفسيره أنَّه كان من أهل الكتاب أمّيون ليس لهم من العلم حظّ، لا يعلمون من الكتاب إلّا التلاوة التي تلقّوها بالتلقين والتقليد فيظنون أنّها من العلم، وأساس هذا أنّ علماءهم وخواصهم مصرّون على الضّلال (السعدي: 2000، 56)، وهؤلاء العامّة يقلّدونهم ويحذون حذوهم من دون تدبّر ورويَّة، مثل هؤلاء إن تمكّن أحدهم من إقناع الناس وجذبهم عُدَّ من الخواص ودخل في عداد أهل العلم.

وقد تقدم القول في تسمية التلاوة بأمنيّة، وثمة تعليل آخر وهو أنَّ الأمنية من مَنِي التي تعني القَدْر، والأمنية هي تقدير شيءٍ في النفس وتصويره لا عن رويّة ولا عن فهم دقيق، فالأميّ ذو ذهنٍ خالٍ لا تتزاحم فيه الأفكار والخواطر، وحين يتلو يقدّرُ مواضع الكلام ،فيضعُ كلّ ما ينطقه موضعَه الصحيح من دون تدبّر.

ويجوز أنْ يكون المعنى على أنّ الذي يتلو كلامًا من دون علم به كمن يتمنّاه، إذ يقالُ لمن يقول شيئًا لا حقيقة له: هذا مُنى فلان وهذه أمنية،على ما أشرنا إلى ذلك في التَّرسيس المعجميّ، وهذا وارد في كلام الناس إلى اليوم.

وممَّا قيل أيضًا إنَّ الأمانيّ هي الأكاذيب التي تلقّوها من شياطينهم، بالاستناد إلى قوله تعالى: ﴿ولأضلنّهم ولأُمنينّهم﴾ (سورة النساء: 119)، أو التي منَّاهم أحبارهم من الأمنيات الفارغة، أو هي كلّ ما يبغي المرء تحصيله بتشوُّفٍ وتشوُّقٍ من دون الأخذ بأسبابه.

بناءً عليه يكون الاستثناء هنا منقطعًا على الأرجح، ذلك أنّ جنسَ ما يتمنَّون ليس من الكتاب في شيء، فعلم الكتاب يقين، وأمانيهم ظنون،

ويؤيَّد ذلك بقوله تعالى: ﴿وإنْ هم إلَّا يظنُّون﴾. (ينظر: الآلوسي: 1994، 1\302)

والتَّمني من جهة أخرى جالب للخوف والحساسية، يخشى النَّاس تمكُّنَه من النَّفس، فقد رأى ليفي بريل أنّ التمني ليس مجرد عاطفة أو رغبة، وإنّما هو حدث إيجابيّ فعليّ يقوم به المُتمنّي؛ لأنَّ للتفكير في هذه الحالة أثراً أكثر من الفعل، فتعترف الشعوب جميعها بقوته الخطيرة، وذلك من منطلق إيمانهم بأنّ مقاومة رغبات النفس الجامحة أمر مستحيل. وقد نقل عن أحد الرّحالة المبشرين أنّه لحظ اعتقاد الناس بخطورة التمني في الجزيرة العربية وحساسيتهم المفرطة تجاهه. (بريل: د.ت، 397)، فالتَّمنِّي في نظرهم صنو الحسد موافقًا بما ورد في الوصايا العشر: ((لاَ تَشْتَهِ بَيْتَ قَرِيبِكَ. لاَ تَشْتَهِ امْرَأَةَ قَرِيبِكَ، وَلاَ عَبْدَهُ، وَلاَ أَمَتَهُ، وَلاَ ثَوْرَهُ، وَلاَ حِمَارَهُ، وَلاَ شَيْئًا مِمَّا لِقَرِيبِكَ)). (سفر الخروج 20: 17) وممَّا يؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب ممَّا اكتسبن﴾ (سورة النساء: 32).

ذهب المفسرون إلى أنَّ المنهيّ عنه هنا التَّحاسد فيما هو من الأمور الدنيوية، وكذا الدينية أيضًا، فقد نزلت في النهي عن تمنّي مال فلان أو تَمنَّى نِعْمته على أن تتحوّل عنه. (ابن كثير: د.ت، 2\287)

ومن ذلك، أيضًا، قوله -صلى الله عليه وسلم قال-:((لا حَسَدَ إلَّا في اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ القُرْآنَ، فَهو يَتْلُوهُ آناءَ اللَّيْلِ، وآناءَ النَّهارِ، فَسَمِعَهُ جارٌ له، فقالَ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ ما أُوتِيَ فُلانٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَ ما يَعْمَلُ، ورَجُلٌ آتاهُ اللَّهُ مالًا فَهو يُهْلِكُهُ في الحَقِّ، فقالَ رَجُلٌ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ ما أُوتِيَ فُلانٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَ ما يَعْمَلُ)) (البخاري: 1422هـ، 6\191).

وهذا -كما تقدَّم- مخالف للرّجاء، فالرَّجاء طمعٌ مشروع مُحبَّب يسنده العمل والإخلاص فيُتوقَّع حصولهـ، نعم قد يكون الرَّجاء من الظنّ، ولكنه ظنٌّ بوقوع الخير الذي يعترى صاحبه الشكّ إلَّا أنَّ ظنَّه أغلب، وهنا يظهر الفرق بين الرَّجاء والطَّمع، فالأول لا يكون إلّا عن سبب يدعو إليه من كرم المرجو، والطَّمع يكون من غير سبب يدعو إليهـ، ولهذا ذُمَّ الطَّمعُ ولم يُذمَّ الرجاء (العكسري: د.ت، 244-254)، لذا يقول الإمام الرازي عن قوله تعالى: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقاءَنا﴾ (سورة يونس: 7)، أَيْ لَا يَطْمَعُونَ فِي ثَوَابِنَا، فَيَكُونُ هَذَا الرَّجَاءُ هُوَ الَّذِي ضِدُّهُ الْيَأْسُ، كَمَا قَالَ: ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَما يَئِسَ الْكُفَّارُ﴾ (سورة الممتحنة: 13)؛ لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَرْجُو مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُوَصِّلَهُ إِلَى ثَوَابِهِ وَمَقَامَاتِ رَحْمَتِهِ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَكُلُّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ فَهُوَ يَرْجُو ثَوَابَهُ، وَكُلُّ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَلَا بِالْمَعَادِ فَقَدْ أَبْطَلَ عَلَى نَفْسِهِ هَذَا الرَّجَاءَ، فَلَا جَرَمَ حَسُنَ جَعْلُ عَدَمِ هَذَا الرَّجَاءِ كِنَايَةً عَنْ عَدَمِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.)) (الرازي: 1420هـ، 17\210-211).

والأمر يتأكّد أكثر إذا ما جذّرنا ل(ليت) وهي أداة التَّمنّي المركزية في العربيّة، فمادتها تضمر معنى النقص والافتقار، فهي على رأيٍ من مادة (لوت) وتشترك مع لات يليت، وألات يُليتُ، ولات التي من مشبّهات ليس، يقول ابن منظور: ((لاتَه حَقَّه يَليتُه لَيْتاً، وأَلاتَه: نَقَصه.))؛ لأن الشيء إن لم تفتقر إليه وإن لم ينقصْك وإن لم يستحل على طموحك لا تتمنّاه، على أنّ المعجم العربي يشتّت هذه الكلمات على مواد، مع أنّها جميعًا تضمر معنى (النقص) فما تضمره ليت هو عين ما تضمره (يَلِتْكم وألتناهم ولَات).

التَّمنّي كما يبدو محاط بمحاذير كثيرة: دينيَّة واجتماعيّة، ولعلّ موقف أهل المناهي اللفظية منه اليوم قابل لأنْ يؤخذ مثالًا عن البقايا الثقافية

المترسّبة في اللاوعي الجمعيّ، فضلًا على أنَّ الناس ما تزال تتوجّس من التَّمني خيفة.

المطلب الثالث: (الرَّجاء:المتوقَّعُ الذي إنْ توقعته وقع لا محالة)

مرَّ أن الخلاف حول علَّة خروج الترجّي من أساليب الطلب مشكل في البحث البلاغيّ، والسبب أنّ علماء العرب من أصوليين، وبلاغيين، وفلاسفة يختلفون في تصنيف التَّمني، والترجي إلى درجة تجد من يجعلهما خبرًا لا إنشاءً، ولكن إجمالًا يمكن الحديث عن المسألة عند من يجعل الرَّجاء إنشاءً غيرَ طلبيّ.

التمني والترجي كلاهما تعلّق القلب بالشيء من حيث يُتوقع، وهنا ينبغي الوقوف عند معنى التوقّع وضعًا وإحساسًا، إذ يردّ كثيرًا في سياق التَّمني والترجي، مع ملاحظة أنَّه ألصقُ بالتَّرجي منه بالتَّمنِّي، فمن معاني التَّوقع:

- السقوط: ومنه ((التوقيع، ومعناه الرمي قريبًا لا تباعده كأنك تريد أن توقعه على شيء)) (الفراهيدي: د.ت،2 \177) وهنا نستشفُّ أنَّ دلالة الواقع والوقوع التي تعني الحصول والكينونة في الحوادث الماديّة والمعنويَّة أخذت من هنا.

- الإصابة وتنظّر الأمر: يقال: ((توقَّعت مجيئه وتنظرته. وتوقّع الشيء واستوقعه: تنظره وتخوفه.)) (الفراهيدي: د.ت، 2\177)، وهذا المعنى غير بعيد عمَّا تضمنه الرَّجاء من الانتظار والتَّشوّف، وإصابة ما هو متوقّع والنَّظر إليه على أنَّه واقع.

- تظنِّي الشيء وتوهُّمه: يقال: ((وقِّعْ، أي ألقِ ظنَّك على شيء.)) (الفراهيدي: د.ت، 2\177) فهذا على مقربة من التمنِّي الترجِّي في حال دلالتهما على تمثُّلِ الشيء وتخيّله عند تشَهّيه وإرادته في النفس.

- مقاربة الشيء والدُّنوّ منه: فمن ذلك قولهم: ((واقعَ الأمورَ مواقعة ووقاعًا، أي داناها.)) (ينظر: الجوهري1987، 3\1303، و ابن منظور: 1414هـ، 8\406).

ولعلَّ هذا المعنى الأخير يجعل التوقُّع والرَّجاء شيئًا واحدًا، أو أنَّ أحدهما شيءٌ من الآخر، فالرَّجَاءَ شيءٌ من التوقّع، ولذا جاءا مترادفين في سياقات كثيرة، وهنا تكمن خطورة مفهوم التوقُّع عند الإمام الرَّازي حين يقول: ((إنَّ أَشْرَفَ أَقْسَامِ التَّوَقُّعِ هُوَ الرَّجَاءُ)) (الرازي: 1420ه،31\18)، ومن هنا قيل: ((الْمَشْهُورَ فِي الرَّجَاءِ هُوَ تَوَقُّعُ الْخَيْرِ لَا غَيْر)) (الرازي: 1420هـ، 25\28).

يضاف إلى ذلك أنّ تمييز الرَّجاء عن التمني مرتبط في الوعي العربيّ بقضيتين دينيتين لهما حضورهما في الوجدان العربيّ، وإنْ لم يُصرّح بهما في متون اللغة، ألَا وهما قضيتا (حسن الظّن بالله)، و(القنوط) فإذا كان تمنّي الأمر المحبوب مرتبطًا بالفقد واليأس وانعدام الطمع في أشياء مستحيلة أو أشياء فيها عسر طبيعةً وعادةً، فإنّ رجاء الأمر المحبوب والمكروه يرتبط بكلّ ما هو ممكن ومستقرب عادة.

خذْ مثلًا تمنِّي عودة الشباب، فهو طلبٌ من قانط فاقد لأمر محال، وخذْ قوله تعالى: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (سورة القصص: 79) فهذا طلبٌ من آيس معدم لأمر غير مطموع في نيله، وكلا الطلبين تعبير عن رغبة المتكلم في حصول عود الشَّباب، وأن يؤتى مال قارون وليس عن كونهما محققَينِ في الواقع، ولا عن كونهما على مقربة من الوقوع، فكلتا الرغبتين ممّا لا يرجى حصولهما، لأن التَّمني مستبعد، الرَّجاء مستقرب غير مستبعد.

إزاء ذلك خذْ مثلًا قولهم: (لعلّي أنجح) في حال إذا كان القائل متفائلًا فيكون توقّعَ محبوبٍ غير محال ولا مستبعد، وخذْ مثلًا قولهم: (لعلّ فلانًا يرسب) حين يكون القائل يتوقع رسوبه وليس ذلك بمعجز.

عندما تنظر في المثالين تتصورهما وفق المقرّرات المدرسيَّة طلبًا، ولكنَّ للبلاغيين رأيًا آخر؛ لأنّ المثالين ليسا تعبيرًا عن شيء غير حاصل وقت الكلام ونحن نريد حصوله[انظر النقطة الثالثة]، بل هما تعبير عن أمر ينزل منزلة ما هو حاصل لا محالة في اعتقاد المتكلم الذي ينتظر وقوعه، فمن معاني الرجاء -بل أشهر معانيه-((التوقّع والأمل)) أو التوقّع الذي يعني ترقّب شيء حاصل ولكنه مُرجَأ (مؤجِل) أو التوقع المشوب بالخوف؛ لأنّ الرّاجي يخاف ألّا يدرك ما يترجاه. ولكن ينبغي ألّا يفهم الخوف هنا على أنَّه عائق أو حائل دون نيلك ما ترجوه، إذ يكفي أن يكون لك توقع وطماعية في وقوعه، والله تعالى عند ظنّ عبده، على هذا فالتَّرجِّي ((ليس بطلب، بل هو ترقب الحصول)) (التفتازاني: د.ت، 2\312).

المعوَّل عليه في هذا الشأن ليس الملفوظ وحده أو النسبة الكلامية، بل مراعاة الجانب العقديّ والثقافي في التواصل، وإلّا فمن منّا يقنع بكلام شارح التلخيص وهو يعلَل إخراج الترجي من دائرة الطلب: ((لأنّ المكروه لا يُطلب)) (القزويني: 1998، 3\35)؟. هذا تعليل غير مقنع، ولكننا سنتقنع، بل نؤمن حين يُشفع -مثلًا- بقول الإمام علي -كرّم الله وجهه-: ((وكلُّ متوقع آت، وكلُّ آتٍ قريب دانٍ)) (الشريف الرضي: د.ت، 1\480). فإذا حمل الناس في وجدانهم هذا المبدأ عن إيمانٍ ويقين تحقَّق ما يرجون، فإنَّهم إذا توقعوا الشيء فسيقع لا محالة، وعندما يفقدون إيمانهم به سيُستبعدُ ولا يتحقَّق، ألَا ترى أنَّ الناس يستعملون اليوم الرجاء بمعنى

المستبعد الأبيِّ، فلْنَنْظرْ -مثلًا- في اللهجة العراقية حين يقول المترَجِّي:(أترجاك...) قل لي: ماذا يُفهم من كلامه آلأملُ أمِ الاستبعاد؟.

يُفهمُ من كلامه الاستبعاد بدليل أنّه قد يشفع رجاءه بالتَّوسّل والتَّذلّل، والسَّبب أنَّ الناس مع تقادم الزَّمن والتحولات الثقافيّة وتغيّرات الأطر الاجتماعية تتغيَّر قناعاتهم الدِّينية، وقد تتلاشى أحاسيسهم بالمُثُل، وتتبدّد تصوراتهم عنها.

الرجاء إذن، سواء أكان على سبيل المحبة أم على سبيل الكراهة، فإنّه في مقام الواقع حقّا، ونسبته الخارجية على شفا حفرة من الوقوع، فمن معاني الرجاء -كما سبق- قرب الوقوع، ومنه الرَّجوة والأرجاء والأرجاء والرَّجوى وهو -كما قلنا- جانبا الحفرة!.

إذ تتمثّل النسبة الخارجية للرَّجاء باعتقاد المتكلم وإيمانه بتحقّق المرجو عاجلًا أم آجلًا، والقضية في رأينا لا تخرج عن التشاؤم والتفاؤل وحسن الظّن بالله عزَّ وجلَّ.

وإذا كان وقوع الشيء المرجو متحقّق لا محالة فإنّ الترجي يكاد يقترب من (الإيقاعيات) بتعبير التداوليين؛ لأنّ المترجَّى ((أمرٌ يُعتقد حصوله وإمكانه)) أي يستدعي مطلوبًا ممكنًا وحاصلًا في اعتقاد المتكلم وقت الطلب (انظر النقطة الرابعة) فالرجاء مشتمل على شرط جوهري من الإنشائيات الايقاعية وهو الاعتقاد، وكأنّ بين الراجي ومن يرجوه عهد يبرمه في حال تلفظه،وإذا كان ذلك فالأجدر بالرجاء أن يكون((توقع حصول الأمر)) وليس طلبًا لحصوله.

ولتأكيد ذلك نقف عند أداتي الرجاء في العربيَّة -لعلَّ وعسى- لنرى كيف يستعملان في لغة العرب:

للعلَّ معانٍ منسية، إذ يبدو أنَّ الانشغال بعملها ومعموليها وبمجيئها ناصبة تارة وجارة تارة (ابن عقيل: د.ت، 3\4)، واختلافها في لغات العرب بين (لعلّ وعلّ)، وحركة لامها (ينظر: ابن عقيل: د.ت، 3\4)، كلُّ أولئك كان مسؤولًا عن تقليص دلالتها بالرَّجاء، وصرف النظر في معانيها التي تتعدَّى الرَّجاء والإشفاق.

لا هنا نجازف بحصر معانيها جميعًا ،ولكن نستطيع -إجمالًا- الإشارة إلى الكثير منها مع سوق أمثلة بغية تسييقها:

1- التوقّع في المحبوب الممكن: مثل: (لعلّ محمدًا قادم) وهذا هو التّرجي أصلًا و وضعًا. وقد استنكر الحريريّ وابن هشام قول الناس: (لعَلَّهُ نَدِمَ)، أو(لَعَلَّهُ قد نَدِمَ) وعُدَّا ذلك وقوعًا في التناقض: ((وَوَجْهُ الكلامِ أَنْ يُقالَ: لعَلَّهُ يَنْدَمُ، أو لَعَلَّهُ لا يندمُ؛ لأنَّ معنى (لَعَلَّ) التوقع لمَرْجُو أو مَخُوفٍ، والتَّوقع إنَّما يكون لِما يتجددُ ويتولَّدُ، لا لما انقضى وانصرم. فإذا قلتَ: نَدِمَ، أخبرت عمَّا قضي الأمر فيه واستحال معنى التوقع له، فلهذا لم يجز دخولُ لعلّ))(الحريري: 1998، 36، و اللخمي: 2003، 304). على حين ذهب ابن برّي إلى إمكان ذلك وصحته، وإن كان معنى لعلَّ ما ذكر، فإنَّ مخرج الكلام المشكوك فيه والمظنون. والشّكُّ والظنُّ يكونان فيما مضى(البغدادي: د.ت، 5\178).

2- التوقّع في المكروه الممكن: مثل قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾(سورة الشعراء: 3)، وهذا هو الإشفاق (=الخوف)، ومعنى الآية: لعلّك قاتل نفسك، أي أشفق على نفسك لا تقتلها حسرة عليهم.

3- التعليل: ومنه ما ورد في القرآن مُفَسّرًا ب (كي)، و قيل إنَّها للإطماع لا للتعليل. (ابن منظور: 1414هـ، 11\473، وينظر: السامرائي: 2000، 1\306).

4- الاستفهام: بهذا فسر بعضهم قوله تعالى: ﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾(الطلاق:1).

5- التَّحقيق: يستدلُّ على هذا المعنى كلّ ما تقدم في حال كان المتكلّم متيقِّنًا، يتوقّع الشيء عن إيمان.

6- بمعنى الظّنّ والاحتمال: كقولك: (لعلي أزورك اليوم إن استطعت). ومثله الظنّ والشكّ فيما مضى كما تبيّن ذلك من اعتراض ابن بري على الحريري.

7- الإطماع: مثل: (اقرأ جيّدًا لعلك تنجح)، وهذا المعنى ليس بعيدًا عن التعليل، وكما يبدو أنَّ الطمع هنا محمود؛ لأنَّه مبنيٌّ على سبب، إذ يُعلِّق الناصح النَّجاح بالقراءة.(ينظر: ابن منظور: 1414هـ، 11\374)

8- التَّشبيه (الإتقان: 1\172): ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾(الشعراء: 129)، أي كأنَّكم تخلدون، ولكن الإنسان إذ يصنع ويكدّ ويجمع يساوره الخلود، فعبّر عزّ وجلَّ عمّا في أنفسِ عباده بأداة تحمل معنى اليقين، لتكون أدلّ على ما يجول في النَّفس.

وممَّا يُلحظ أنَّ ليت تأتي بمعنى لعلّ، لكن مجيء (لعل) بمعنى (ليت) غير مقنع، أمّا قوله تعالى على لسان فرعون: ﴿لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾(سورة غافر: 36-37)، فليس من التَّمني في شيء؛ لأن فرعون كان يزعم أنَّ ذلك في مقدوره و ليس من المحال!.

ومن كلّ هذه الوجوه لم نعثر على دلالة سلبية لهذه الأداة، بل كانت بكلّ تحولاتها الدلالية إيجابيّة تبعث على التفاؤل والمسرة واليقين وقرب وقوع الشيء ودنوّه.

أمّا عن استعمال عسى، فهي ((في كلامهم رجاء ويقين)) (ابن منظور: 1414هـ، 15\55)، فمنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾(سورة القصص: 22)

قال ابنُ عباسٍ في تفسيرها: ((خرجَ وليسَ لهُ علمٌ بالطريقِ إلا حُسنُ ظنِّه بربِّه))(حموش: 2007، 5\602).

ومنه قول ابن مقبل الشهير: (ابن مقبل:1995، 191)

ظنّي بهم كعسى وهم بتنوفةٍ يتنازعون جوائز الأمثال

إذ وردت (عسى) بمعنى اليقين كما في قول الشاعر الذي يقول (ظنّي بهم كعسى) أي: ظنّي بهم يقين، فعسى تدلّ على الثبوت واليقين، لذا يقول الأصمعي في شرح البيت: إنَّ ظنِّي ((ليس بثبْتٍ كعسى. يريد أنّ الظنّ هنا وإنْ كان بمعنى اليقين، فهو كعسى في كونِها بمعنى الطمع والرجاء. ويقال: هو عَسِيّ أنْ يفعل كذا وعَسٍ أن يفعل كذا، أي: خليقٌ)) (ابن مقبل: 1995، 50-51). هكذا فهمت العرب معنى الرّجاء، وهكذا فهمه البلغاء ،فالمرجوّ واقع في معتقد المتكلم، وهذا سبب إخراجه من أساليب الطلب، فنحنُ أمّة اتّكالية تحسن الظنّ بالله تعالى الذي يحبّ الفأل الحسن. قفْ عند كلّ آية من القرآن فيها رجاء، وعند كلّ حديث شريف، وقفْ عند أبيات من الشعر العربي وآثار الأولين وأقوال البلغاء، وبعد هذا لا تقلْ كيف فهمت أنتَ معنى الرّجاء، بل قل: كيف فهمتْ العرب قديمًا معنى الرجاء،لأنّنا بعيدون عن الذائقة العربيّة، وبيننا وبين تلك الذائقة حجاب، فلا نفهم الرجاء إلّا على أنّه طلب.

الخاتمة

توصلتِ الدراسة إلى مجموعة من النتائج، يمكن إجمالها في نقاط:

١- إنّ استخبار المعجم العربي كان كافيًا للحيلولة دون تقييد التمني بما لا يمكن حصوله وما لا يتوقع حصوله .كذلك الأمر مع معنى الرجاء، إذ اهتدت الدراسة من خلال تحولات مادة رجو إلى جانب مهم من المضمون الثقافيٍ لاستعمالات العرب.

٢- إنّ إشكالية فهم التمني والترجي وإشكالية فرزهما عن بعض، ارتبطت بعدم التمييز بين اللغة في حالة استعمالها عن اللغة في مجال الفنون والاصطلاحات من جهة، وعدم التمييز بين لغة الإعجاز الربَّانيّ ولغة الإنجاز البشريّ من جهة أخرى، إذ الفروق الدقيقة التي أقامها اللغويون بين الاثنين كان مبنيًّا على فكرة الإعجاز ومدى دقة كتاب الله في استعمال المفردات.

٣- أثبتت مراجعة استعمال التمنّي والترجيّ في القرآن الكريم والأحاديث النبوية ومأثورات العرب أنّ التمنّي يكون في الممكن وفي غير المكن، وأنّ الترجي خرج عن أساليب الطلب والبوحيِات أو الإفصاحيات واقترب من الإخبار لِما فيه من شُحنة اعتقادية إيجابية.

٤- إنّ تمييز الرجاء من التمنّي مرتبط في الوعي البلاغي بقضيتين اعتقاديتين،هما(حسن الظن بالله)، و(القنوط). لكن هذه المسألة تكاد تكون مغيّبة في المأثور البلاغي، إلّا أنّ المعجمات وكتب الفقهاء والمفسرين استطاعت استدعاءها.

٥- إنّ الكشف عن مفهوم (التوقّع) وتحولات دلالته واحتماله معنى التحيّن أثر بالغ في فهم الأسلوبين؛ لأنّ الأسلوبين كلاهما توقّع،لكنَّه إلى الرَّجاء أقرب،وفي الرجاء أدخل.

٦- يعتمد فهم الأسلوبين بصورة أدق بمحاولة القارئ أن يسترد بخياله إحساس العرب في استعمالهما.

٧- لمعتقدات الناس ومتبنياتهم الدينية وقناعاتهم أثر بالغ في استعمال الأولين أسلوبي التمني والترجّي، إذ يرتبطان أيّما ارتباط بمشاعر الناس وعواطفهم تجاه الغيبيات.

8- المحصّلة: لكي تقنع بما أُثر من كلام العرب في استعمال أسلوبي التَّمنِّي والترجّي خارج ما عهدناه في الدرس البلاغي، ينبغي أنْ تستردَّ إحساس العرب الأولين بالكلمة، لترى في قرارة نفسك أنّهم استعملوا الرجاء لِما هو مُتحيَّن وقوعُه، مُراقَبٌ حصولُه، بل لا نغالي إذا قلنا: كأنّه حاصل لا محالة.

9- كان منطلق هذه الدراسة من فرضية أنّ كلّ الأساليب البلاغية تضمر حكاية ثقافية ما، جهد الباحث إلى الكشف عمَّا يضمره أسلوبا التمني والترجي من حكاية ثقافية تتعلقانِ بعواطف الجماعة ورغباتهم ومخاوفهم وتصوراتهم عن الحسد والقدرة الغيبية للكلمة على التأثير في الشيء، ولكن من دون أنْ يدَّعي الكمال فيما زعم أو فيما ذهب إليه، أو أنَّه قال قول الفصل، إذ الموضوع في حاجة إلى قراءات أخرى.

توصية

حاجة البلاغة العربية إلى مقاربة أنثروبولوجية تحفّزها اليوم الجهود البينية التي برزت في حقول المعرفة كاللسانيات الإدراكية، وعلم اجتماع المعرفة، والأنثربولوجيا الإدراكية والأنثروبولوجيا الرمزية وغيرها من التخصّصات، وهذا يدعونا إلى قراءة البلاغة قراءة أنثروبولوجيّة بهدف الكشف عن مكنوناتها الثقافية والاجتماعية.

مصادر الدراسة ومراجعها

• ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد (ت ٦٠٦هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي: المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م

• ابن عقيل، عبد الله بن عبد الرحمن (المتوفى: ٧٦٩ هـ)، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث - القاهرة، دار مصر للطباعة، سعيد جودة السحار وشركاؤه، د-ت.

• ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكريا (ت ٣٩٥هـ)، معجم مقاييس اللغة تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون [ت ١٤٠٨هـ]، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الثانية، (١٣٨٩ - ١٣٩٢هـ) (١٩٦٩ - ١٩٧٢م).

• ابن قيم، محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١هـ)، الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة،، دار الكتب العلمية - بيروت.

• ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ)، تفسير القرآن العظيم، وضع حواشيه وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.د-ت.

• ابن مقبل، ديوان ابن مقبل، عني بتحقيقه الدكتور عزة شبل، دار الشرق العربي، بيروت، 1995م.

• ابن منظور، محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ)، لسان العرب ، الحواشي: لليازجي وجماعة من اللغويين، الناشر: دار صادر - بيروت- ١٤١٤هـ.

• أبو بكر، د.منجد محمد، الأمل والرجاء في القرآن الكريم دراسة موضوعية، دار النوادر اللبنانية، بيروت، ٢٠١٤م.

• الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود (ت ١٢٧٠ هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: ضبطه وصححه: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

• البخاري، أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري تحقيق: جماعة من العلماء، دار طوق النجاة - بيروت، ١٤٢٢هـ.

• بريل، ليفي، العقلية البدائية، ترجمة: د.محمد القصاص، مراجعة: د.حسن الساعاتي.

• البغدادي، عبد القادر بن عمر (١٠٣٠هـ - ١٠٩٣هـ)، شرح أبيات مغني اللبيب، تحقيق: عبد العزيز رباح - أحمد يوسف دقاق، دار المأمون للتراث، بيروت.

• بن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد (ت ٢٣٥هـ)، المصنف في الأحاديث والآثار تقديم وضبط: كمال يوسف الحوت، دار التاج -لبنان، ومكتبة الرشد - الرياض، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

• التفتازاني، سعد الدين (ت ٧٩٢هـ)، حاشية الدسوقي على مختصر المعاني تحقيق: محمد بن عرفة الدسوقي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت.د-ت.

• الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد (ت ٣٩٣هـ)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧.

• الحريري، القاسم بن علي (ت ٥١٦هـ)، درة الغواص في أوهام الخواص، تحقيق: عرفات مطرجي، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت، ١٩٩٨/١٤١٨هـ.

• حموش الأستاذ مأمون، التفسير المأمون على منهج التنزيل والصحيح المسنون، مركز النخب العلمية،1428هـ-2007م.

• الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر (ت ٦٠٦هـ)، مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير)، دار إحياء التراث العربي - بيروت - ١٤٢٠.

• رسل، برتراند ترجمة حيدر الحاج إسماعيل، بحث في المعنى والصدق، المنظمة العربية للترجمة،بيروت،٢٠١٣م.

• الرضي، الشريف أبو الحسن محمد بن الحسن، نهج البلاغة، ضبط نصه: الدكتور: صبحي الصالح، دار الكتاب المصري، ودار الكتاب اللبناني، ط4، 2004.

• الزَّبيدي، محمّد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس تحقيق: جماعة من المختصين، إصدارات: وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت،١٩٦٥ م.

• السامرائي، فاضل صالح، معاني النحو، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - الأردن،١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

• سرحت، سعد، لسانيات النص مداخل نظرية مع دراسة إسرائيل في كتاب طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي، سلسلة منشورات نون، ٢٠١٦م.

• السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله (ت ١٣٧٦هـ)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م.

• سيبويه، عمرو بن عثمان بشر (ت ١٨٠هـ)، الكتاب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة،١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

• العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله (ت نحو ٣٩٥هـ)، الفروق اللغوية، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر، د.ت.

• عوني، حامد، المنهاج الواضح للبلاغة، المكتبة الأزهرية للتراث، د-ت.

• الفاسي، العلامة أحمد زروق، شرح الحكم العطائية،، تحقيق: مصطفى مرزوقي، دار ابن حزم، بيروت،٢٠١٢م.

• الفراهيدي، أبو عبد الرحمن بن أحمد بن عمرو بن تميم (ت170هـ)، تحقيق: د. مهدي المخزومي، و د. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، د.ت.

• القزويني، محمد بن عبد الرحمن بن عمر، (ت ٧٣٩هـ)، الإيضاح في علوم البلاغة تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل – بيروت ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

• اللخمي، ابن هشام (ت ٥٧٧هـ)، المدخل إلى تقويم اللسان، تحقيق: الأستاذ الدكتور حاتم صالح الضامن، دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

• المرداوي، علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان (ت ٨٨٥ هـ)، التحبير شرح التحرير في أصول الفقه، دراسة وتحقيق: د. عبد الرحمن الجبرين، د. عوض القرني، د. أحمد السراح، مكتبة الرشد - السعودية، الرياض، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

• الهاشمي، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى (ت ١٣٦٢هـ)، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت.

• الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد (ت ٤٦٨هـ)، التفسير البسيط، تحقيق: لجنة علمية من الجامعة بسبكه وتنسيقه، عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٣٠هـ.